

عَبر من التراث العربي

العلماء عند المسلمين

عبد اللطيف الأرنؤوط

[العلماء عند المسلمين] (*) كتاب لطيف في موضوعه، جمع مادته وألف فصوله باحث فاضل هو الدكتور « محمد منير سعد الدين » معتمداً المراجع التراثية والمصادر الحديثة ، وقد قسمه إلى مقدمة ، ومدخل تناول فيه مكانة العالم في الاسلام ونظرة العالم المسلم إلى دوره في المجتمع ، وعرض موضوعه في ستة فصول تناول فيها : علاقة العلماء بالناس وبزملائهم ، والخصومة بين العلماء وعلاقتهم بأصحاب السلطة ، وموقف أصحاب السلطة من العلماء ، وموقف العلماء من أصحاب السلطة ، والمستوى المعيشي والخلقي للعالم المسلم ، وألقاب العلماء وملابسهم والخدمات الاجتماعية التي كانت تقدم لهم ، ومكانة المرأة للعلماء المسلمة ، مع خاتمة للكتاب وثبت بالمصادر والمراجع التي اعتمدها .

وقد جهد المؤلف ، أن يضع لكل فصل من فصول كتابه أبواباً فرعية وفق منهج مصمم ، فجاء الكتاب ذا طابع أكاديمي دقيق في تصنيفه وأسلوب عرضه ، متوازناً في فصوله .

يهدي المؤلف كتابه إلى روح والده الطاهرة « عرفانا بأبوته وتخليداً لذكراه في الميدان التربوي الذي أفنى عمره فيه » ثم يتناول في المقدمة الظروف الحرجة التي تمر بها الأمة العربية الاسلامية في عصرنا ويبين أنه هدف من تأليف كتابه

(*) العلماء عند المسلمين • تأليف الدكتور محمد منير سعد الدين • / ٢٥٠ / صفحة من القطع الكبير صدر عن دار المناهل بيروت ، عام ١٩٩٤ •

اللقاء. أضواء على سير عدد من العلماء الذين حفل بهم تاريخ العرب والاسلام ، فكلنوا نجومًا وضياءً أنجبتهم التربية الاسلامية التي تنبثق من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فهي النبع الذي يشكل الفرد الصالح والمجتمع الصالح ، والعلماء « ورثة الأنبياء » ألا أنهم بشر " لا يخلون مما في البشر من ضعف وعيوب ، غير أن فضلهم لا يجحد فقد لبوا دعوة الاسلام ، وحثه على التعلم والتعليم ، ووعد طالب العلم بأجر عظيم ، وإعلانه أن الملائكة لتضع لطالب العلم أجنحة يطير بها ، وأن الله اصطفى العالم بمجد لا يناله سواه ، ثم يشير المؤلف الى الجوانب الايجابية التي برزت في سلوك علماء المسلمين وهي ثمرة توحيد قوي مصدره الدين الحنيف وسنة السلف الصالح ، غير أن الظروف الاجتماعية المتغيرة والتكوين الانساني لبعض العلماء دفعتهم الى الانحراف عن الجادة في سلوكهم ، وهي سلبيات لا يخلو منها تاريخ أمة .

وقد واجهت المؤلف صعوبات منها أن الأصول التراثية عندنا لم تبحث في الحياة الاجتماعية بحثاً وافياً دقيقاً ، وأن الأخبار العامة التي استند اليها في الحكم لا تفيد في تأليف صورة صحيحة كاملة لحياة العلماء ودورهم ، لأن كتب التراث عنيت بحياة الخلفاء والقادة أكثر من عنايتها بسير العلماء ، مثلما حفلت كتب التراجم بأخبار لا تخلو من دوافع مغرضة لناقلها مدحاً أو ذمّاً .

وتناول المؤلف في المدخل الذي مهد به لفصول الكتاب ، الحديث عن مكانة العالم في نظر الاسلام ، اذ لم يسبق الاسلام دين عني بالعلم والدعوة إليه ، فقد جعل العلم ضرورة إنسانية ودينية واجبة ، يؤيد ذلك ما ورد من آيات في القرآن الكريم وأحاديث نبوية شريفة تخت عليه ، من ذلك قوله سبحانه وتعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات) «سورة المجادلة: ١١» وقوله تعالى (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب) «سورة الزمر : آية ٨» وقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) «سورة فاطر : آية ٢٨» ، ومن ذلك ما جاء في السنة النبوية الشريفة في فضل العلم والعلماء ، كقوله (ﷺ) (من يطلب العلم يسلك به طريقاً يؤدي الى سعادة الدارين) وقوله عليه الصلاة والسلام : (أربعة تجري عليهم أجورهم بعد الموت : المرابط في سبيل الله ، ومن علم علماً

أجرى له ما عمل به ، ورجل تصدق بصدقة فأجره يجرى ما جرت ، ورجل ترك أولاداً صفاراً فهم يدعون له) وقوله : (ﷺ) : « إن مثل العلماء في الأرض كممثل نجوم السماء ، تهتدي بهافي ظلمات البر والبحر ، فاذا طمست النجوم يوشك أن تضلّ الهواة » ويرى الامام الغزالي « أن رتبة العالم بحسب رتبة العلم ، ولا شك في أن أفضل المعلومات وأعلاها وأشرفها وأجلّها ، هو العلم بالله سبحانه وتعالى ، الصانع المبدع الحق ، الواحد .. » (الرسالة الكونية ص ٢٢ - ٢٣) .

أما عن نظرة العالم المسلم الى وظيفته ومكانته ودوره في المجتمع فانها لا تقل أهمية في اتساعها وشمولها عن دور المربي في عصرنا ، بل تتجاوز هذا الدور الى الدعوة الى الايمان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، واصلاح ذات البين ، ونصرة المظلوم ، والدفاع عن الحق ، والاهتمام بمصالح المجتمع ، وهي أمور تصدر عن ضمير العالم المسلم الذي يشعر بالتزامه الخلقي والديني النابع من كيانه الداخلي وليس من قوة مفروضة عليه ، فهو مسؤول عن ذاته وعن الجماعة ، يحمل رسالة العلم لينفع بها الناس وينتفع بها ، قال (ﷺ) : « من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » ولكن عليه أن يعمل بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، وهو إن عمل بعلمه يجب أن يتقن عمله في مختلف نشاطات الحياة ، ومن دور العالم الخطير ورسالته الهامة إدراك العالم المسلم أن العلم يهبه رتبة اجتماعية يحسب حسابها ، فان غضب هزّ عروش الظالمين ، وأخضعهم للحق .

* * *

في الفصل الأول يستعرض المؤلف علاقة العلماء بعمامة الناس ، فقد كان للعالم المسلم نفوذه وكلمته المسموعة في المجتمع ، وكان يخشاه الحكام .

روي أن الملك الظاهر قال حين مرت جنازة شيخ الاسلام عز الدين عبدالسلام (المتوفى ٦٦٠ هـ) : اليوم استقر أمري في الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك مني . وكان الشيخ سبط بن الجوزي (المتوفى ٦٥٤ هـ) واعظ زمانه ، اذا صعد المنبر وحقق الناس اليه انتحب

فينتحب الناس ، وكان العامة يتبركون بالسكنى في جوار العلماء، روي أن جاراً
لأبي حمزة السكري المحدث (ت ١٦٧هـ) أراد أن يبيع داره فقيل له : بكم ، قال
بألفين ثمن الدار، وألفين جوار أبي حمزة فبلغ ذلك أبا حمزة فوجه إليه بأربعة
آلاف وقال له : خذ هذه ولا تبع دارك .

واشتهر كثير من العلماء بحل مشكلات الناس والوساطة لهم لدى الحكام
فهم يسترون الأعراض ، ويسعون في حاجة الفقراء ، كما تشير الأخبار المأثورة
عن سير العلماء ، ومن هؤلاء محمد بن ابراهيم النحاس النحوي شيخ الديار
المصرية (ت ٦٩٨ هـ) وعبد العزيز بن دلف البغدادي (ت ٦٣٧ هـ)
والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) الذي سأله أحدهم قائلاً :

احملني أيها الأمير ، فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية ثم قال :
لو علمت أن الله سبحانه وتعالى خلق مركوباً غير هذا لحملتك عليه ، وتصدق
الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) بجميع ماله وهو مائتا دينار
فرّقها على أرباب الحديث ، ووقف خزانة كتبه على المسلمين ولم يكن له
عقب .

وكان الناس يأتمنون العلماء على ودائعهم ، روى عبد الرحمن المسعودي
قال : « ما رأيت أحسن أمانة من أبي حنيفة ، يوم مات كان عنده ودائع
بخمسين ألفاً ما ضاع منها درهم واحد » .

وأثر عن العالم المسلم اصطحابه المحتاجين الى الحج ، فكان الناس يرغبون
في رفقته للإفادة من علمه ، وكان العلماء يتعلمون الحِرَافَ ويعملون الأعمال لكي
لا يحتاجوا إلى سؤال الناس ، فأبو حنيفة النعمان (ت ١٥٣ هـ) كان خزازاً ،
وأبو بكر الصبغي الامام الفقيه المحدث كان يبيع الصبغ ، وقد أخلص العلماء
المسلمون لعلمهم حتى علت مكانتهم في علومهم بين الناس وضربت بهم الأمثال .
قيل في اسماعيل بن القالي (ت ٣٥٦ هـ) مؤلف كتاب الأمالي ، « من لم يقرأ
الأمالي فهو للأدب مال » وقيل في النهرواني المعافى بن زكريا (٣٩٠ هـ)
« اذا حضر المعافى حضرت العلوم » وطبقت شهرة العز بن عبد السلام
الشافعي (ت ٦٦٠ هـ) الآفاق حتى ضرب المثل فيه فقيل : « ما أنت إلا من
العوام ولو كنت ابن عبد السلام » .

وكان العالم ينتدب للشدائد ويؤخذ رأيه في المحر ، ويشترك الناس في حروب أعداء الأمة فيجاهد ويحث على الجهاد ، فالفقيه الزاهد عبدالله بن المبارك (ت ١٨٢ هـ) أقسم أن يجاهد علماً ويحج عاماً ، وكان العلماء يسهمون في تجهيز الغزاة من أموالهم ، ومن هؤلاء الحسن بن علي أبو أحمد التميمي (ت ٣٧٥ هـ) فقد « أخرج مرة عشرة أنفس من الغزاة بآلتهم بدلاً من نفسه ورابط غير مرة » .

واحترق الناس بالعلماء يودعونهم حين رحيلهم عن أمصارهم أو يستقبلونهم كالقادة حين وفادتهم إليها ، فقد استقبل أهل بلاد العجم أبا اسحق الشيرازي (ت ٤٧٦ هـ) بنسائهم وأولادهم ، وأخذوا تراب نعليه يستشفون به ، ونثرت بين يديه الحلوى والفاكهة وهوينهاهم ، ولما قدم إلى نيسابور تلقاه الناس ، وحمل إمام الحرمين أبو المعالي غاشيته ومشى بين يديه مفتخراً .

وتدافق طلبة العلم على العلماء المشهورين يحضرون مجالسهم حتى بلغ عدد من كان يقعد بين يدي الشيخ الجويني (ت ٤٧٨ هـ) إمام الحرمين ، والفقيه الشافعي الأشعري ، نحو ثلاثمائة رجل من الأئمة والطلبة ، وكان نجم الدين الجوشاني (ت ٥٧٨ هـ) شيخ المدرسة الصلاحية في القاهرة وناظرها يعامل طلابه معاملة الأب لأبنائه فيسهر على شؤونهم ويسعى لحل مشاكلهم .

ومما يدل على أثر العلماء في الناس مشاركتهم في جنازات العلماء الفضلاء منهم ، قال رسول الله (ﷺ) ، (موت العالم ثلثة في الاسلام) فموته يعني موت مؤسسة ، ولذلك كان طلابه ومريدوه يبكونه بصدق ، ويجسّدون الخسارة بنظم قصائد الرثاء ، وحين مات الإمام أبو حنيفة (ت ١٥٣ هـ) صلّي عليه ست مرات لكثرة الزحام ، وحضر جنازة الإمام أحمد بن حنبل « ثمانمائة ألف من الرجال ، ومن النساء ستون ألف امرأة ، وكان دفنه يوم الجمعة » . ولما مات المجتهد الصوفي (ت ٢٩٨ هـ) قدر عدد الذين صلّوا عليه بستين ألف إنسان ، وتوفي الفقيه علي بن عقيل (ت ٥١٣ هـ) فصلّي عليه في جامع القصر والمنصور وكان الجمع يفوق الإحصاء . قال

عبدالرحمن بن الجوزي في المنتظم : (قال شيخنا ابن ناصر أي شيخ
ابن الجوزي حررتهم بثلاثمائة ألف) .

ومما يشعر بمكانة العالم التفاف الناس حوله في أيام (المحن) التي كان
يتعرض لها من الحكام أو الخصوم ، فقد تعرض الامام ابن حنبل للمحنة زمن
المأمون ، حين رفض القول بخلق القرآن ، فخرجت تظاهرات ضخمة في بغداد
لتأييده ، كانت من الأسباب التي دعت الخليفة الى التراجع عن قراره واطلاق
سراحه .

وقد ساعد التقارب بين العلماء وعامة الناس على تشكيل رأي قسوي في
المجتمع الاسلامي يقف في وجه كل انحراف أو زيغ يصدر عن أولياء الأمور ،
وقد تمتع بهذا الدعم رجال الدين من فقهاء ومحدثين . أما أصحاب العلوم
الأخرى من المتكلمين والفلاسفة والنحاة فلم تكن لهم تلك السلطة التي كانت
لأصحاب علوم الدين لأن علومهم لا تتصل كثيراً بحياة الناس ومعتقدهم الديني .

* * *

وعن علاقة العلماء بزملائهم يشير المؤلف في الفصل الثاني الى أنها كانت
على الأغلب علاقة مودة وتعاون واحترام ، فقد أراد محمد بن السري الزجاج
(ت ٣١٠ هـ) من أصحاب المبرد أن يناظر أبا العباس ثعلب ، وكان ثعلب أميل
الى المدرسة الكوفية ، فلما نظره ألجمه ثعلب بعلمه وطالبه بالفلة ، فأدرك سعة
علمه ورجاحة عقله ، واعتذر لتطاوله عليه . وكان المتنبّي يقول عن ابن جني
(ت ٣٩٢ هـ) : هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس .

ودرجة العلماء على التشاور في مسائل العلم ، وتقدير أصحاب النظر
والأكثر احاطة بالعلم ، كان المازني يقول لأصحابه اذا اختلفوا في مسألة من
مسائل النحو : ابعثوا الى هذا الفتى الكاتب (يعني محمد عبدالملك الزيات)
واسألوه واعرفوا جوابه .

وكان العلماء يعترفون بعلم العالم ، ويتابعون مسائل العلم بالمراسلة
والزيارة ، ويرتبون فيما بينهم بعلاقات من الود والاحترام ، فقد كتب نوح
ابن نصر إلى أبي سعيد السيرافي يسأله عن مسائل تزيد على أربعمائة مسألة .

الغالب عليها الحروف ، وباقي ذلك أمثال مصنوعة على العرب شكّ فيها فسأل عنها ، فأجابه عنها ، وكان للخطيب البغدادي مراسلات علمية مع معاصريه في مختلف البلدان .

وقد بلغ من تواضع علماء المسلمين أنهم لم يكونوا يتخرجون من حضور دروس زملائهم المتخصصين بأبواب من العلم يجهلونّها أو الذين يفوقونهم علماً ، فكان علي بن اسماعيل أبو الحسن الأشعري (ت ٣٣٠ هـ) يجلس أيام الجمعة في حلقة أبي اسحق المروزي (ت ٣٤٠ هـ) الفقيه في جامع المنصور ، وحضر أبو بكر الخطيب البغدادي درس الشيخ أبي اسحق الشيرازي ولازم الامام القشيري (ت ٤٦٥ هـ) دروس الامام عبد الملك الجويني (امام الحرمين) حتى حصلت له قدم راسخة في المذهب والخلاف وارتحل علم الدين قيصر بن مسافر الحنفي المصري (ت ٦٤٩ هـ) الى الموصل لحضور دروس العالم الشيخ كمال الدين بن يونس (ت ٦٣٩ هـ) وكان متفرداً في علوم الموسيقى والرياضيات .

وقد درج العلماء على تبادل الكتب وحضور حلقات طلابهم الذين أصبحوا مدرسين تشجيعاً لهم ، وكان الأدنى علماً منهم يمتنع عن الفتوى في أمر علمي بحضور من هو أعلم منه ، فكان الحسن بن عمارة (ت ٢٥٣ هـ) ومسعد بن كرام يجلسان في مجلس واحد وكان مسعد إذا سئل عن الحديث والحسن بن عمارة حاضر لم يحدث وقال : اسألوا أبا محمد ، مثلما درج العلماء أن يتقبلوا تصويب الأغلاط وتقبل النقد من زملائهم بروح علمية ، فقد صوّب شيخ الاسلام علي بن محمد الدارقطني تصحيحاً وقع فيه أبو بكر الأنباري في أحد مجالسه ، فأقرّه الشيخ بما صوّب بعد الرجوع الى الأصل ، وكان العلماء يتكاتفون في المحن ، فقد تصدى للدفاع عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام في محنته مع الملك الأشرف الأيوبي عالمان جليلان هما جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكي وجمال الدين الخضير شيخ الحنفية وأقنعا السلطان أن يسترضي الشيخ عز الدين .

وكان طلاب العلم يلتمسون من الشيوخ الكبار الاجازات العلمية ، كما فعل الشيخ عبد الرحمن العمادي الذي راسل العلامة المقرئ يطلب الاجازة لأولاده الثلاثة .

وكثيراً ما كان العلماء يتبادلون الزيارات في حال المرض أو المصائب ويستفسرون عن أحوال زملائهم أو يهنئونهم بسلامة العودة من السفر أو الحج . فقد قدم ابن سمعون على أحمد الطبري المحدث الفقيه المالكي لتهنئته بقدومه من البصرة وألقى بين يديه قصيدة قال فيها :

ويوم تأتي سالمًا غانماً يوم على الإخوان مسعود
مذ غبت غاب الخير من عندنا وان تعد فالخير مردود

أو يشاركون في التعزية بوفاة زميل لهم ، فحين توفي محمد بن داود أبو بكر الأصبهاني جلس ابن سريج للعزاء ، ولما توفي الخطيب البغدادي كان من جملة من حمل نعشه الشيخ أبو اسحق الشيرازي لأنه انتفع به كثيراً وكان يراجع في تصانيفه ، وعندما توفي ابن دريد اللغوي (ت ٣٢١ هـ) رثاه جحظة فقال :

فقدت يا بن دريد كل منفعة لما غدا ثالث الأحجار والتراب
وكنت أبكي لفقد الجود مجتهداً فصرت أبكي لفقد الجود والأدب

وكانت وصية العالم تحترم وتنفذ بدقة ، وأثر عن العلماء مؤازرة زملائهم عند الحاجة ، فقد أصيب أبو الحسن الكرخي المعتزلي بالفالج في آخر عمره ، (ت ٣٤٠ هـ) فاجتمع العلماء وقرروا أن يكتبوا الى سيف الدولة في طلب ما ينفق عليه ، فسمع أبو الحسن فبكى وقال : اللهم لا تجعل رزقي الا من حيث عودتني ، ومات قبل أن يحمل سيف الدولة له شيئاً ، وألف العلماء أن يتصاهروا فيما بينهم تقرباً من سدنة العلم وايماناً منهم بفضل تربية العالم أبناءه ، فقد تثقف فخر الدين بن عساكر (ت ٦٢٠ هـ) شيخ الشافعية بالشام على الشيخ قطب الدين النيسابوري وزوجه بابتته ، ومقابل ذلك ، لم تخل حياة العلماء من خصومات فكرية أو مذهبية أملاها التعصب للمذهب أو العلم وضيق الأفق . ومن أمثلة هذه الخصومات الصراع الفكري في مسائل النحو بين الكوفيين والبصريين ، وأخبار هذه الخصومات مذكورة مشهورة منها خصومة الكسائي واليزيدي ، والمبرد وثعلب ، ومنها الخصومة بين الحنابلة والصوفية ، وبين المتكلمين وغيرهم من أصحاب المدارس

الفكرية ، أو تلك المناظرات بين المسلمين وغيرهم ، كالمناظرة التي قامت بين ابن بطلان النصراني وابن رضوان المصري ، ولم تغل هذه المناظرات من خصومة كالمناظرات التي قامت بين الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني ، وبين القالي ومحمد بن الخشاب .

وقد امتاز الكثير من العلماء المسلمين بالأمانة العلمية ، وإسناد المعلومات التي صادرها الأصلية ، وندر منهم من لم يتبع المنهج العلمي أو سلك طريق السرقة العلمية ، فقد اتهم محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) بأنه كان يغير على كتب الناس فينسبها الى نفسه .

ومما يؤخذ على بعض العلماء خصوماتهم وتنافسهم للحظوة عند الحكام فكان ابن خالويه والمتنبي يتنازعا للحظوة عند سيف الدولة ، وحاول ابن مجاهد الحط من القيمة العلمية لأبي بكر الشبلي ، وقد يدفعهم تنافسهم على تولي الوظائف كالقضاء والولاية الى التآمر ، ودس بعضهم على بعض . وكان بعضهم يتوصل اليها بالوساطة وبشفاعة الآخرين ، غضب عبدالله بن المبارك المحدث الثقة على (ابن علبه) لتوليته القضاء ، وكتب له رقعة جاء فيها :

يا جاعل الدين له بازياء يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها بعيلة تذهب بالدين
أين رواياتك في سردها عن ابن عون وابن سيرين
ان كنت أكرهت فذا باطل زل حمار العلم بالطين

وقد يمتنع بعض كبار العلماء عن قبول الوظائف تعففاً من ظلم الناس ، ويترفعون عن قبول أجر لما يقدمونه من تعليم ، ولم تغل حياة العلماء من حسد وطعن في الزملاء ، فكان يحيى بن أكثم (ت ٢٤٢ هـ) يحسد حسداً شديداً (فاذا نظر الى رجل يحفظ الفقه سألته عن الحديث ، فان رآه يحفظ الحديث سألته عن النحو ليقطعه ويخجله) .

لكن هذه الحالات كانت نادرة فكثير من العلماء كانوا أصحاب قلوب كبيرة وحسن تعامل ووفاء كبير لزملائهم ، وان كان بينهم من عرف بقله الوفاء أو الوقعية بين الزملاء أو الشماتة بوفاة خصم ، وحتى في مجال الخصومة بين

للعلماء العرب والعجم ، على الرغم من الشعوبية والرد عليها ، فانها لم تعكس ظاهرة علمة بل كانت العلاقات بين الطرفين تقو على الود والاحترام المتبادل .

وفي الفصل الثالث يتحدث المؤلف عن علاقة العلماء بأصحاب السلطة ، وقد تحدث السبكي عن العالم الذي يتردد على أبواب السلطان (فيذهب فقهه وينسى ما كان يعلمه) بالاضافة الى احتقار صاحب الشأن للمتردد عليه بعد أن يستغله لقضاء مأربه ، والى ما في ذلك من انغماس في الدنيا) ويعد ابن الجوزي هذه الصلة من تلبيس ابليس كذلك ينصح الامام الغزالي العالم بالابتعاد عن أبواب السلاطين (والمخالط لهم لا يخلو من تكلف في طيب مرضاتهم واستحالة قلوبهم مع أنهم ظلمة) ومع ذلك فان الصلات بين العلماء ورجال الحكم لا يمكن أن تنقطع ، وقد نفع بعض العلماء الناس بهذه الصلة ، وأضر بعضهم بنفسه ودينه ، وكان الفارابي العالم يؤثر العزلة ويقول :

فما الدار دار مقام لنا وما المرء في الأرض بالمعجز
محيط السموات أولى بنا فماذا التنافس في مركز ؟

وترك المصري الدنيا من حوله وانصرف للعلم ، وكان الفقهاء أقرب العلماء للسلطة بحكم حاجة السلطان اليهم في القضاء والتشريع ، وقد نشروا أفكارهم وتميزوا في نظر السلطة منذ القرن الثاني للهجرة ويأتي بعدهم نفر من مؤيدي أبناء الملوك والوعاظ ، على أن بعض العلماء كانت له مواقف صلبة من ذوي الشأن ملتزماً قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) فرفض أبو حنيفة منصب القضاء وأقام عليه ابن هبيرة الحد لذلك ، وامتنع علي بن الحسين بن صالح البغدادي (ت ٣٢٠ هـ) من قبوله أيضاً فسجنه الوزير ابن الفرات ، ورفض عبدالله بن مصعب الأسدي (ت ١٨٤ هـ) منصب الولاية فأكرهه الرشيد على ولاية المدينة ، مثلما رفض بعضهم عطاءات السلطة لأنها أو بعضها حرام في نظر بعض العلماء كالغزالي ، ورفض القاضي محمد بن عبدالله عين الدولة شهادة السلطان الملك الكامل الأيوبي في مجلس قضاؤه ، لأنه كان مولعاً بجارية اسمها عجيبة ، وقضى

الشيخ عز الدين عبدالسلام بأن جماعة من أمراء الدولة الأتراك لم يثبت عنده أنهم أحرار فأفتى ببيعهم في سوق النخاسة وتوزيع أثمانهم على المسلمين مثلما أفتى بخيانة السلطان اسماعيل الذي تعاون مع الصليبيين وأعلن فتواه من على منبر جامع بني أمية بدمشق ونزع البيعة عنه فأمر السلطان بعزله ، وكان بعضهم يتحدى أصحاب الشأن ولا يخضع له ، فقد بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى الى محمد بن اسماعيل البخاري صاحب الصحيح أن احمل إلي كتاب الجامع والتاريخ وغيرهما لأسمع منك ، فقال البخاري لرسوله : أنا لا أذل العلم ولا أحمله الى أبواب الناس .

وتولى نفر من العلماء وعظ أصحاب الشأن وارشادهم . فقد قال الغزالي للسلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقي : أسفأ ، ان رقاب الناس المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب وركاب خيلك كادت تنقض بالأطواق الذهبية ، مثلما أرسل رسائل مماثلة بالفارسية الى الوزراء والولاة ، منها رسالته الى فخر الملك ، وأخرى الى مجير الدين يقول فيها : ان اغاثة الخلق واجبة على الجميع وقد تجاوز الظلم الحدود . . » وقد وصل الأمر ببعض العلماء الى السيطرة على أصحاب السلطة كسيطرة المتكلمين والفقهاء على عقول الخلفاء ، وسيطرة الصوفية بمصر منذ أيام ذي النون المصري ، ويعود ذلك الى مكانة العالم واجلاله والخوف منه ، ومن تعلق الناس به وسماع كلامه ، وكان اجلال العالم يتعدى العالم المسلم فقد نال ثابت بن قره النصراني مكانة كبيرة في نفس المعتضد . وحظي موسى بن ميمون اليهودي بمكانة مماثلة لدى حكام الأندلس ، وبلغ من سمو منزلة العلماء أنهم كانوا يعينون بمراسم من السلطان ويخلع عليهم عند التولية ، وكان من يعلم أبناء الوزراء والقادة منهم يحظون بالأعطيات والتكريم ، وندب الحكام العلماء لمهمات جسيمة كالسفارة والوساطة والخطابة والقضاء ، ولا سيما من كان يتمتع منهم باللباقة واللياقة والدبلوماسية ، فقد تولى أبو عبد القضاعي الفقيه والمحدث والمؤرخ (ت ٤٥٤ هـ) السفارة للخليفة المستنصر لدى تيودورا قيصرية الروم ، وأرسل المسترشد بهاء الدين الأسفراييني الى عماد الدين زنكي برسالة فيها خشونة فقبض عليه عماد الدين وأهانته ، وكلف الحسن بن محمد الصفهاني من الخليفة الناصر ليكون سفيراً له لدى ملك الهند ،

ووفد ابن فضلان من قبل الخليفة المقتدر إلى ملك البلغار فأفاد من سفارته في تأليف رسالة عما شاهد في رحلته .

وكان لبعض العلماء فتاوى خطيرة، فقد وصف الأطباء للملك الصالح الأيوبي التداوي بشرب الخمر حين مرض ، فأبى حتى يستفتي الفقهاء فأفتاه فقيه من مدرسي الحنفية بجواز ذلك ، فقال الملك : أرأيت إن قدر الله تعالى بقرب الأجل أيقدّم ذلك أو يؤخره شرب الخمر ؟ فقال الفقيه ، لا ، قال الملك ، والله لا لقيت الله سبحانه وتعالى وقد استعمت ما حرمه عليّ ، ولم يشربه .

ودرج الخلفاء والوزراء على تقديم أعطيات جزيلة للعلماء حين يؤلفون كتبهم فتهدى إلى ذوي الشأن ، فقد نال الجاحظ خمسة آلاف دينار من الوزير ابن الزيات حين أهداه كتاب الحيوان ، وألف أصحاب الشأن استقدام العلماء من شتى الأمصار والتباهي بوجودهم في بلاطاتهم فقد استدعى الغزنوي ثلاثة من كبار المعتزلة ، واستدعى الحاكم بأمر الله الحسن بن هيثم إلى مصر ، وكان الحكام يكلفون العلماء تأليف كتب لهم ، فألف القاضي كتاب الايضاح والتكملة في النحو لعضد الدولة في فارس وصنف أبو اسحق الصابي كتاب (التاجي) لعضد الدولة أيضاً ، وصنف البيروني (ت ٤٤٠ هـ) كتاب القانون المسعودي للسلطان مسعود الغزنوي .

ودرج الحكام على تفريغ العلماء للبحث العلمي ، فقد أمر المأمون أن يفرد للفرّاء حجرة من قصره ووكل له من يخدمه ليتفرغ لتأليف كتاب في النحو فألف كتاب : الحدود ، ثم ألف بعد ذلك كتاب المعاني ، وكان الملوك والولاة يحضرون مجالس العلم ، كسيف الدولة الحمداني ونظام الملك السلجوقي والملك العادل الأيوبي ، أو يقيمونها في بلاطاتهم ، ويصطحبون العلماء في رحلاتهم وحجهم وغزواتهم ، وسميت بعض المرافق والشوارع بأسماء العلماء الذين أسسوها كالمدسة الدولعية في دمشق التي نسبت لمؤسسها العلامة جمال الدين الدولعي (ت ٥٥٥ هـ) والمدسة الابراذية في بغداد التي نسبت لمؤسسها الفقيه أحمد بن علي الابراذي .

وقد خصص المؤلف الفصل الرابع من كتابه للحديث عن المستوى الخلفي والمعيشي للعلماء ، وميز بين علماء تمتعوا بوجودان حيّ فعلشوا شرفاء فقرأوا وآخرين جنحوا عن جادة الصواب ، فأولع بعضهم بالفلمان أو باللهو أو الحمرة أو المقامرة ، روي عن أبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٠ هـ) أنه على علمه وفضله كان مولعاً بالفلمان يذهب فيهم مذهب الاستمتاع بالنظر ، وكان « اسماعيل الأنماطي » كثير الدعابة مع المرد ، وكان أبو بكر الوراق يعيش حياة متناقضة بين بيته ومجلسه وقد سئل : ما أبعد حاليك في مجلسيك ! قال : ذاك بيت الله ، وهذا بيتي أضع في كل واحد منهما ما يليق به وبصاحبه ، وأثر عن ابن دريد وهو إمام عصره في اللغة والأدب ولعه بالخمير ، وتعلّق أبو عبد الله التلمغري الأديب الشاعر (ت ٦٧٥ هـ) بالمقامرة وشاع ذكره حتى طرده صاحب حلب منها . واتهم بعض العلماء بالهوس والبله ، فكان الشيخ علي بن حازم (ت ٦٣٧ هـ) المعروف بالأبله يلعب مع الصغار ويتشبه بأفعالهم مع علوّ سته ، وكان الحريري صاحب المقامات (ت ٦٤٦ هـ) يلبس الملابس الغربية حتى ثوب المرأة المطرز والملون ، وأثر عن بعضهم المقدارة في اللباس والزراية في الهيئة فكان السهروردي المتصوف المعروف بالشهاب المقتول دنس الثياب وسنخ الميدين لا يغسل له ثوباً ولا جسماً ، وكان المقل يسرح على جسده .

على أن بعضهم اتصف بظلم الناس وقذارة النفس والتزوير فقد رتب عبد السلام الجيلي (ت ٦١١ هـ) الضرائب على الناس وهو عميد بغداد فاستلب أموالهم بغير حق ، وكان بعض العلماء يسرق مجهود سواه وينسبه إلى نفسه أو يكذب في نقل الأخبار ولا يتحرى في النقل ، وقد اتهم بذلك ابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣ هـ) واتهم بعضهم بالتلون المذهبي كالمبارك بن سعيد النحوي أبو بكر الدهان فقد كان يتكلم عدة لغات ، غير أنه بدأ حنبلياً ثم أصبح حنفيّاً ودرس النحو في النظامية وكان من شروط هذا المنصب أن يكون صاحبه شافعيّاً فغير مذهبه .

فكتب إليه أبو البركات التكريتي :

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وذلك لما اعوزتك الماكل
وما اخترت رأي الشافعي تدينا ولكنما تهوى الذي هو حاصل

أما عن معاش العلماء فان دراسة أحصت أوضاع العلماء في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، فتبين أن ٨٠٪ منهم كانوا من التجار وأصحاب الحرف ، مما أبعد عنهم شبح الفاقة والاستجداء ، ويرى ابن خلدون أن العلماء ، وبخاصة أهل الصنائع الدينية لا تعظم ثروتهم لأن حاجة الناس إليهم متفاوتة إلا فيما ندر ، ولذلك عانى بعضهم الفقر فقد عاش إبراهيم بن اسحق الحربي (ت ٢٨٥ هـ) على الخبز اليابس والملح ، وكتب التوحيدي يصف فقره « لقد اضطرت بينهم بعد العشرة والمعرفة إلى أكل الخضر في الصحراء ، والتكفف الواضح عند الحاجة العامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وتعاطي الرياء بالسلمعة والنفاق وإلى ما لا يحسن الحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم » . ومات علي بن أحمد بن نوبخت (ت ٤١٦ هـ) الأديب في مصر وهو على حاله من الضرورة وشدة الفاقة ، ولم يجد أهل أبي الحسن البزاز (ت ٤١٩ هـ) ثمن كفن له حين موته . واضطر القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر (ت ٤٢٢ هـ) إلى مغادرة بلده بغداد فلما سئل عن سبب رحيله قال: لو وجدت بين ظهرائكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية . وبناع أبو علي القالي نسخته من كتابه « الجمهرة » وكان كلفاً بها ، فاشتراها الشريف المرتضى فوجد عليها بخط القالي :

وما كان ظني أنبي سابعها ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن ضعفاً وافتقاراً وصيبة صغارا عليهم تستهل جفوني
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك ودائع من ربّ بهن ضنين

على أن ذلك لا ينفي تمتع بعض العلماء بالغنى والجاه لحظوتهم عند أصحاب السلطة أو لعملهم في التعليم والتأليف فقد بلغ إقطاع العالم صفى الدين عبد الله بن علي بن الحسين الفقيه المحدث مائة ألف دينار وعشرين ألفاً في السنة ، وكان العلماء الأطباء أكثر غنى من سواهم من أمثال عيسى الرقي طبيب سيف الدولة وأسعد الدين بن أبي الحسن طبيب الملك الكامل .

وتفاوت أجر العالم أو المدرس بحسب شهرته ومع تفاوت الظروف والأحوال ، فكان الحسن بن الهيثم لا يتقاضى أجراً عن تعليمه في حين كان

أبو بكر العسكري (ت ٣٤٥هـ) لا يقرئ كتاب سيبويه إلا بمائة دينار ، وأجرى سيف الدولة على الفارابي أربعة دراهم كل يوم فاقتصر عليها ، وكان المدرسون في العصر الأيوبي يتقاضون أجورهم مشاهرة أو جراية ويقدم لهم فوق ذلك بعض اللوازم من المدرسة كالحلواء والفواكه والصابون والبزر والفرش واللحم ، مما يدل على عناية الاسلام العظيمة بالعلم .

★ ★ ★

وفي الفصل الخامس يتحدث المؤلف عن ألقاب العلماء في الاسلام فيذكر من ألقابهم ستة وثلاثين لقباً أوردها المقدسي مثل مقررء وإمام وشيخ ومحدث ومفسر ومؤذن وولي وعابد وزاهد ، وكانت الألقاب تطلق بحسب اختصاص العالم وصفاته ، وفي العصور المتأخرة ظهرت ألقاب التعظيم مثل شيخ الاسلام وركن الدين وسيد العلماء وجمال الأئمة وحجة الاسلام وفخر الشريعة . .

وقد ذكر القلقشندي جملة منها ، ويحلل المؤلف بعض هذه الألقاب فيرى أن لقب العالم من ألقاب السلطان وهو خلاف الجاهل ولقب الامام إشارة إلى علو كعب صاحبه بعلمه ، ولا سيما العلوم الدينية ، والشيخ ويطلق على العالم الذي تقدم في فنه ، وهو لقب تعليمي . أما الفقيه فهو لقب يطلق على المجتهدين غير المقلدين في العلم ، والأستاذ لقب فارسي أطلق على أصحاب الصنائع ثم خصّ بمن مهر في التعليم ، وغزر علمه ، والمدرس : ويطلق على من يتصدى للعلوم الشرعية وقد شاع منذ القرن الرابع الهجري ، والمعيد : وقدارتبط هذا اللقب غالباً بالمدرّس ، وهو مساعد المدرس الذي يساعد المتخلفين من الطلبة للحاق بأقرانهم ، والمستلمي : وبه يستعين الشيخ إذا كان عدد الطلاب كبيراً لينقل إليهم ما يقوله الشيخ بصوت مرتفع ، والمربي : وهو لقب قل استخدامه في العصور الماضية وقصر استعماله في دائرة التصوف ، والمجتهد . وهو من ألقاب العلماء ويراد به من يستنبط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، والمعلم . وكان من أدنى الرتب العلمية ، إذ كان يقرن غالباً بتعليم الأولاد في الكتاب . والمؤدّب ، وهو معلم خاص يعلم الطلبة في بيوتهم ، ويهدّ بهم .

وعن ملابس العلماء، فإن لكل طائفة منهم شعارها الخاص الذي يميزها في لباسها ومن أبرز ملابس العالم : العمامة والجبة والطيلسان والقلنسوة وهي قبعة طويلة مخروطية الشكل أول من لبسها المنصور ، والطرحة وهي من الألبسة الخاصة بالمدرسين وتوضع فوق العمامة. والفرجية : وهي نوع من الثياب يلبس فوق سائر الملابس ولها طوق وأردان وتكون مفرجة من قدام، ومن أعلاها الى أسفلها مزررة بالأزرار وتطرح على الكتفين ، وقد افتن بعض العلماء في العصور المتأخرة بلبسه ، فاهتم به أكثر من اهتمامه بالعلم .

* * *

وفي الفصل الأخير من الكتاب يتحدث المؤلف عن الخدمات الاجتماعية التي تقدم للعلماء ومكانة المرأة العاملة ، فقد جرت العادة أن يعالج المعلمون والطلبة المرضى على نفقة المعاهد أو الدولة ، وكان العلماء والمعلمون يمنحون اجازات مرضية لمن يقعدهم مرضهم عن العمل ، وأعدت المدارس لمبيت الطلاب والمدرسين ولم يكن يسمح للمدرس باستحضار عائلته للإقامة معه في المبيت الداخلي ، وكان لبعض العلماء دور خاصة قرب دار الحاكم ، وبالمقابل فثمة ما يشير الى أن بعض العلماء سكنوا دوراً متواضعة أو في الجوامع والترب لفقرهم .

وغالباً ما كان ابن العالم يخلفه في وظيفته واختصاصه، وكان مرتب العالم ينقل أحياناً بعد وفاته الى أولاده ، وقد يمتنع المدرس اجازة لقضاء الحج أو العمرة أو المجاورة ، وكان يسمح للطلبة والمدرسين بالتغيب عن المدرسة ثلاثة أيام مأجورة في كل شهر .

واعترف الاسلام بحق المرأة في التعلم فبرزت علمات وأدبيات في مختلف شؤون العلوم والآداب ، ولكن تعليم المرأة لم يكن منتشراً انتشار تعليم الرجال ، ورأى الخليفة عمر وجاراه المعتزلة والمعري تعليم المرأة القرآن والدين ليس غير .

وذهب بعضهم الى ضرورة تعليم البنات انطلاقاً من قول الرسول (ﷺ) طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وورد في الاستيعاب والاصابة

« إن الشفاء أم سليمان بن أبي خيثمة قال لها رسول الله (ﷺ) علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة ، ومما يؤيد ذلك أن دعوة الرسول الكريم (ﷺ) دعوة شاملة للجنسين ، ولا يعقل أن تبلغ نساء المسلمين العالمات ما بلغه من علم بالاعتماد على الذاكرة الشفوية فحسب ، ويقول ابن حزم « لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غري » وهن علمنني القرآن وروينني كثيراً من الأشعار ودرّبنني في الخط . وكان تعليم البنات في كتابات متخصصة ، أو في المنازل وقد علم أسد بن الفوات ابنته أسماء ، وعيسى بن مسكين الورع الفقيه بناته وبنات أخيه وحفيداته ، وكان للصوفية رباطات للنساء ، وبرز من نساء المسلمين أعلام مثل أم عيسى بنت إبراهيم بن اسحق الحرابي الفقيهة ، وخديجة بنت محمد علي الواعظة ، وأم المسويدي زينب بنت عبد الرحمن ، وأم تقيّة بنت الفرج ، وأسس بعضهن مدارس لتعليم الأولاد كمورد خاتون التي أسست المدرسة الخاتونية في دمشق (ت ٥٥٠ هـ) وكركان خاتون مؤسسة المدرسة الصلاحية بدمشق ، ومنهن واعظات مشهورات كالشاهجانية (ت ٤٦٠ هـ) ، ومنهن قاضيات وكاتبات .

وفي خاتمة الكتاب يبين المؤلف أن المكانة الاجتماعية للعلماء كانت تنبع من طبيعة اختصاص العالم ومستوى علمه ومدى الحاجة اليه فكانت علوم الدين تحتل الصدارة ويعطى لمتخصصها المكانة المرموقة ، ويدعو المؤلف الى الافادة من مكانة العلماء في المجتمع الاسلامي لتعزيز التربية وتطوير المجتمع في عصرنا .

وقد بدأ مؤلف كتاب (العلماء عند المسلمين) غزير المادة ، دقيق الاختيار ، أميناً في النقل ، أفاد من المراجع القديمة والمصادر الحديثة على حد سواء ، وفي تقديره أنه قدّم خدمة ممتازة للقارئ العربي وسدّ ثغرة في جمعه معلومات قيّمة عن العلم والعلماء عند المسلمين ، وفتح الباب لمن يزود البحث في علماء كل علم على حدة للتحقق في معرفة جوهر تلك الحركة الثقافية الرائعة التي نشأت في ظلال الاسلام وبنّت أسس حضارة رفيعة لم يسبق لها نظير ، عسى أن نعید ما سلف من أمجادنا العلمية ، ونرد للعلماء مكانتهم ، فهم ورثة الأنبياء وأمل الأمة في التجدد .